

الاسكندرية في عصر البطالمة

بعض مظاهر الحضارة بها (١)

تأليف زكى على

انفردت الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد بنظمها الخاصة وساعدها على ذلك ظروف تأسيسها على أن تكون مدينة هيلينية حقة متمتعاً بجميع الخصائص والمميزات التي تتوفر في المدينة (polis) أيما تنشأ، وكان اتخاذها عاصمة للبلاد المصرية وهي نائية واقعة على تخوم هذه البلاد وليست في صميمها وقلبها حتى حدا ذلك بالرومان فأسموها بالاسكندرية الواقعة على تخوم مصر (Alexandria ad Aegyptum) - مدعاة لكثير من التناقض في نظمها ومظاهر الحضارة فيها وسببا في كثير من التعقيد في تسير دفة الأمور بها وتعطيل حيثاتها التي أصبحت، في ظل سلطان ملوك البطالمة الذين كانوا يقيمون بين ظهراني الكنديين ، غير قادرة على أن تعصى لهم أمرا .

القوانين المرعبة بالاسكندرية

وكان للاسكندرية محاكمها الخاصة وقوانينها التي تطبق على السكندريين وحدهم ، والتي عرفت في مجموعها بقانون المدينة (Politikos nomos) ، وكانت هذه القوانين معترفا بها حتى في المحاكم القضائية العادية التابعة للملك من خريمانستاي (Chrematistae) وهي التي تنظر في قضايا اليونانيين ، أو كوينوديكيون

(١) تناولت في مقالي السابق الظروف التي احاطت بتأسيس الاسكندرية والعوامل التي أحدثت بالاسكندر فجعله يختار هذا الموقع بالذات وعرجت على طوبوغرافية المدينة ووصف بعض معالمها في ضوء ما جاء في سترابون وها انذا اتناول نواحي اخرى.

(Koinodikion) وهي المحاكم المختلطة التي كانت تنظر في القضايا بين اليونانيين وغيرهم من الأجانب ، او محاكم وطنية - لاوكرتاي (Laocritae) وهي التي كانت تنظر في قضايا الوطنيين من المصريين ، وكان الأساس في قانون مدينة الاسكندرية لحد كبير مستمداً من القانون الأثيني ، وهو السائد في أتيكا ببلاد اليونان مضافا اليه بعض تغييرات وتعديلات مشتقة في بعض الاحيان من غير نظم أتيكا وفي بعض أخرى روعي فيها ظروف مدينة الاسكندرية الخاصة، وكانت تلك القوانين تكمل من وقت لآخر بما يصدره الأحرار في المدينة من قرارات في مجالسهم وتسمى هذه القرارات (psephismata) ، علي أن السكان المقيمين في نطاق هذه المدينة الحرة كانوا يخضعون مع ذلك لما يصدره الملك من قرارات وأوامر.

وأنه لمن حسن الحظ أن حفظت لنا الأيام بعض هذه القوانين التي توفرت علي نشرها احدى الجامعات (١) وأصبحت تعرف ببردية هالنسيس (Papyrus Halensis) . وتحتوي هذه الوثيقة الهامة علي مجموعة من المقتطفات من هذه القوانين المدنية والوأنح التي كانت تطبق علي أحرار المدينة ومن يلوذ بهم من اتباع وعبيد، ولكن لا يوجد أي دليل قاطع في أمر الجهة التي أصدرت هذه القوانين، وهل هي من عمل مجلس الأحرار في المدينة أم أنها جاءت نتيجة فرض الملك لارادته علي هذا المجلس. ونظرا إلى أنها تلي ضوءا علي حياة السكان في مدينة الاسكندرية وتنظم العلاقات بينهم فتأخذ البعض بالشدّة بينما تترفق مع البعض الآخر، فانا نؤثر أن نتقبس منها بعض أحكامها علي الوجه الآتي :

(١) جامعة هالي (Halle) بالمانيا التي نشرت هذه الوثائق القانونية عام ١٩١٣ تحت عنوان (Dikaiomata) ومعناها القوانين والالتزامات

الحقوق القانونية لبعض طبقات السكان في الاسكندرية (١)

« لا يجوز لاحد ان يقيم الدعوى علي أحد آخر من أقدم الملك في خدمته ، لا على اشخاصهم ولا على ضامنهم ، كما لا يحق لمن يوكل اليه أمر التنفيذ ولا لأحد من أعوانه أن يلقي القبض على هؤلاء .

« وكذلك الحال إذا أقام بعض الناس الدعوي ضد ذرية هؤلاء الغائبين وآلهم أو ضد ضامنهم فيما يتعلق بأمور كانت موضوع شكوي وقعت عند ما كان أولئك الذين رحلوا عن ديارهم لا يزالون مقيمين بين ظهرانيهم ، فلا يجوز [حيثند] ان ترفع هذه الدعاوى أمام ساحة القضاء ما لم يكن قد حدث ان هؤلاء بوصف كونهم من الآل والأتباع قد حصلوا لأنفسهم علي حقوق [مكتسبة] بالتقاضي مع آخرين بشأن أمور كانت موضوع النزاع في الوقت المذكور. فاذا كانت الدعوي ضد أمثال هؤلاء فلتقدم للقضاء .

« وإذا ادعى البعض انتهاءهم لطبقة الآل والأتباع فعلي القضاة الفصل في هذا الموضوع ، فاذا تبين أنهم ينتمون لهذه الطبقة وإذا ثبت أن الأمور موضوع النزاع قد وقعت وقت ما كان أولئك الذين رحلوا عنهم لا يزالون يقيمون بين ظهرانيهم ولم يكونوا قد حصلوا بعد علي الاقتصاص منهم بالقانون كما هو مذکور أعلاه ، فليكن مصير هذه الدعاوى إلى التأجيل حتى يعود أولئك الذين فارقوهم . أما رسوم الدعوى وقدرها العشر أو جزءه من خمسة عشر فيستردوها دافعوها (٢) .

(١) من برديه هالفنيس I ١٣٤٤ - ١٦٥ ترجمة النص المنشور في «البردي المختار» (Select Papyri) لكل من هنت وادجار (Hunt & Edgar)

(٢) هذه الرسوم هي نسبة مثوبة مقررة بحسب المبلغ موضوع النزاع وتدفع تأمينا من قبل طرفي النزاع قبل اجراء المحاكمة لتغطية النفقات اللازمة للمحكمة ، على أن يسترد المحكوم اصله. مبلغه من المحكوم عليه

« وكل الدعاوى التي يرفعها آخرون ضد الاتباع بعد رحيل أصحاب الولاية عليهم وتركهم من بعدهم أو الدعاوى التي يرفعها الاتباع ضد آخرين ، مدعين عليهم بأنهم قد الحقوا بهم اضراراً بعد ترك أوليائهم لهم — كل هذه الدعاوى يكون مصيرها النظر أمام محكمة الاختصاص للفصل فيها ، وإذا حدث أن كان الملك قد انفذ بعض الأشخاص في مهمة بعد اقامتهم الدعوى ولم تكن المحكمة قد نظرتها بعد فإن لهم حق الاختيار في استرداد رسوم التأمين من العشر أو الجزء من الخمسة عشر ، على أن تؤجل قضاياهم حتى يعودوا ، على ألا يُقدّموا إلى المحكمة قبل أن يودع من جديد أولئك الذين رفعوا الدعوى رسوم العشر أو الجزء من الخمسة عشر التي كانوا قد استردوها من قبل .

« فإذا كان أصحاب الدعوى ممن يقيمون في الريف (١) (Chora) ثم اتقدم الملك في مهمة قبل أن تقدم هذه الدعاوى إلى المحكمة فإنها تؤجل بنفس الطريقة إلى أن يعودوا ، وكل أولئك الذين منحوا رعية مدينة الاسكندرية وكانوا قد انضوا في لواء الجيش فأمرهم بحري على النحو الآتي : من يتقدم منهم بالشكوى بصدد مرتباتهم ورواتبهم العينية من خلال وما يكون قد آل إليهم من الاموال والغلال التي أضيفت لحسابهم — وكان خصومهم في خدمة الجيش كذلك ممن منحوا رعية مدينة الاسكندرية ، فإن المقاصة تجري أدم المحاكم المختصة للاجانب فيأخذون ما لهم ويدفعون ما عليهم ، على أن يتم تنفيذ الأحكام وفق الامر الملكي (٢) »

(١) الريف هنا بمعناه الواسع ويشمل أي جزء من البلاد المصرية فيما عدا الاسكندرية التي كانت تعتبر المدينة ، وما عداها فهو ريفها ، بمدنها بما يلزمها من حاجيات واقدوات لضمان كفايتها الاقتصادية واستقلالها السياسي وذلك طبقاً لما جرى عليه العرف عند اليونان .

(٢) كانت هناك اواسر ملكية تسمى (Protagmata) ، (Diagrammata) وتتناول شتى المسائل من اقتصادية وقضائية وتنظم مناحي الحياة في مصر البطلمية وهذا الامر الملكي الذي تشير إليه هذه البردية كان شاملاً للتعلّيات الواجب اتباعها فيما يختص بالاجراءات القانونية.

عقوبات التعدي في قانون الاسكندرية (١)

«التهديد بالحديد: اذا هدد رجل حر زميلا له بألة من حديد أو نحاس أو بقطعة من الحجر أو الخشب فعقابه دفع مائة دراهمة اذا خسر دعواه. بيد انه اذا ارتكب عبد من ذكر أو اتي أو أمة شيئا من ذلك ضد حر أو حرة فعقابه ضرب الشياطين ، ولا يقل ذلك عن مائة سوط، والافعلى ولى المذنب اذا ما خسر دعواه ان يدفع لمن لحق به الضرر ضعف الغرامة المقررة على الحر .

«إضرار السكير بالغير : اذا تعدي سكير على آخر فإصابه بضرر في موضع من جسده سواء أكان ذلك في سكون الليل أم في حرم مقدس أم في السوق العامة فجزاؤه دفع ضعف الغرامة المقررة .

«اعتداء العبد على الحر : اذا اعتدى عبد أو أمة بالضرب على حر أو حرة فجزاء المعتدى ان يضرب مائة سوط على الاقل ، اما اذا اعترف سيد العبد بالواقعة فعليه هو ان يدفع بدلا من العبد التابع له ضعف العقوبة المقررة على الحر ، أما اذا دفع بعدم صحة الواقعة ، فللشاكى ان يرفع الامر للقضاء ويطلب تعويضا قدره مائة دراهمة عن كل لكزة أو لكمة أصابته ، واذا أدين سيد العبد فعقابه ان يدفع ثلاثة امثال هذا المبلغ دون مراعاة لتقدير المحكمة . اما في حالة تعدد اللكمات فللشاكى الحق في ان يقدّر قيمة التعويض المطلوب ، عند رفع القضية ، وعلى سيد العبد أن يدفع ثلاثة امثال ما قد تقرره المحكمة من تعويض .

«العراك بين الاحرار: اذا تخرش حر أو حرة فتعدي بالضرب على حر أو حرة فعقاب البادي بالعدوان ، اذا ما أدين ، مائة دراهمة دون مراعاة لتقدير المحكمة .
« واذا تعدي الضرب لاكثر من لكمة ، فللشاكى عند رفع دعواه للقضاء أن

(١) مقتبس من برديه هالنسيس I ١٨٦٦ - ٢١٣ في «البردى المختار»

يقدر هو نفسه مبلغ الضرر الناجم عن الضرب ، وعلي المتهم أن يدفع ضعف ما قد تقرره المحكمة من تعويض .

« وإذا اعتدى احد علي موظف عمومي من موظفي المدينة في اثناء قيامه بهمام منصبه الادارى فجزاؤه اذا ما حكم بادانته دفع ثلاثة أمثال الغرامة المقررة .

« جزاء القسحة: اذا تعدي أحد علي آخر بالسب غير المنصوص عنه في القانون فللطرف المعتدى عليه ، عند رفع دعواه ، أن يقدر ما اصابه من ضرر ، وعليه فوق ذلك ان يبين بالذات كيف استهدف للسب وتاريخ حدوث ذلك ، واذا ادين المتهم فجزاؤه دفع ضعف ما قد تقرره المحكمة من غرامة » .

تلك بعض أمثلة من القوانين المرعية في مدينة الاسكندرية في عصر البطالمة ، وهي تنظم ناحية من حياة السكان بها . وكان هؤلاء ولا ريب ، يمثلون اخلاطا وانواعا جنسية عديدة، وفدوا علي المدينة من شتى الاقطار والارجاء . ويكفي للتدليل علي ذلك أن نذكر الحوار الذي رواه ثيو كريتوس (Theocritus) شعر بلاط بطليموس فيلادلفوس في القصيدة الراعوية الخامسة عشر التي تصف أجنيا فراق بحديث امرأة ثرثرة من سيرا كيوز بصقلية وكانت تسمى براكسينوا (Praxinoa) وصديقتها جورجو (Gorgo) فصاح فيها قائلا « أيتها المرأتان ! ألا تتهيمان عن هذه الثرثرة حتى لسكانكما زوج من الحمام ! إن سماع هذه اللهجة الدورية ذات الالكنة ثقيل علي أذني ومضن لي حتي لينفذ صبري قبل نهايته » فأجابته براكسينوا : « يا للعجب ! من أي أرض جاء نا هذا الشخص ؟ وما شأنك بنا ؟ وماذا يعنيك من ثرثرتنا ؟ عليك أن تشتري عيدك أولا قبل أن تأمر وتنهبي فيهم — إعلم أن من تتحدث لهن وتصدر إليهن الأوامر هن من أهل سيرا كيوز ، وأحب أن تعلم كذلك أننا من أصل كورثي فنحن ، كما تعلم ، نتكلم اللغة البليونيزية أسوة بأبناء

ملك كورنثه ، وأظن أنه يحق للدورين أن يتحدثوا باللهجة الدورية ا .

ولا بد أنه كان بالاسكندرية لهجات أخرى كثيرة كانت تسمع رطانتها في الشوارع والاسواق وعلي رصيف الميناء وفي الندوات الثقافية وحلقات السباق وساحات الالعب الرياضية ثم اضمحلت هذه اللهجات المختلفة وحلت محلها لهجة واحدة مؤتلفة من هذه الرطانات ، كانت تعرف باللهجة المشتركة - كويني - (Koinè) وهي اللغة التي تميز بها ذلك العصر الهيليني الثاني من عصر ما قبل الاسكندر ، وكان أساسها اللهجة الأتيكية مضافا اليها عناصر من اللهجات الأخرى . وكان في التقاء هذه الاجناس والشعوب بالطبع في هذه البوتقة امتزاج كبير للثقافات وللأفكار الدينية ، وقد انتشرت في الاسكندرية عبادة ايزيس وسيرايس وعمت كل ارجاء العالم اليوناني-الروماني ، وفي الاسكندرية تمت الترجمة السبعينية للتسوراة ، وانه لمن حديث الخرافة أن يقال ان هذه الترجمة للعهد القديم كانت بأمر بطليموس الثاني ، والحق انها صدرت تدريجيا كما ينتفع بها يهود الاسكندرية الذين اصطبغوا بطابع هيليني وكانوا أعرف باللغة الاغريقية منهم بلغتهم الاصلية . وفي هذه الترجمة قرأت الكنيسة اليونانية الكتب المقدسة مدة قرون ومنها ترجمت الى القبطية والسوربانية والارمنية واللغات الأخرى — وكانت الاسكندرية احد المراكز الرئيسية في امتزاج الديانات واتحاد الفرق والنحل والمذاهب المختلفة وادماج عبادات مختلفة في بعضها حتى صار منها مجموعة واحدة تمثل ديانة وثنية واحدة هيأت عصب النزاع الأخير بين الوثنية والمسيحية .

وما انتصف القرن الثالث حتي صارت الاسكندرية اعظم مدينة في الشرق واصبحت مركزا تجاريا هاما في العالم الاغريقي يؤمها العلماء والشعراء والمشتغلون بالعلوم الرياضية والتجار والجند والمشتغلون بالزراعة والهندسة ثم السياح الذين قصدوا رؤية معالمها وآثارها — كل اولئك قصدوا اليها من كل حذب وصوب إما للاستقرار

فيها وإما لتابعة سيرهم الى مصر الوسطى وبخاصة اقليم الفيوم الذي أحبه اليونان ورحبوا بالسكنى فيه واستغلال أراضيه بطرق علمية مستحدثة حتى أصبح من مفاخر البطالمة . وفريق من اولئك الاجانب رحل الى صعيد مصر واقصى جنوبها ووصل بعضهم الى جزيرة الفنتين وتركوا من بعدهم في سجل أوراق بردية تعرف «يردى الفنتين» اثرا يبين حياة اولئك الاقوام وطرائق معيشتهم وعقود زواجهم ومدى اختلاطهم^(١)— وهكذا كانت البلاد المصرية بفضل الاصلاحات اليونانية والسياسة المستنيرة التي نهجها ملوك البطالمة قد تحول كثير من اراضيها البائرة الى مزارع مثمرة وتضاعفت غلات الارض وثمراتها في كل مكان ، وكانت المنتجات الواردة من مختلف انحاء العالم والحاصلات المصرية تربي على أرضه ميناء الاسكندرية أو تتجمع في مستودعاتها الملكية (Thesauroi) فالعاج وخشب الابنوس والذهب والتوابل كانت ترد من افريقية، ولم تنقطع عن المدينة حاصلات الهند وكان يباع الحرير الوارد من الصين في الاسكندرية في عصر متأخر ، وكان يرد من بلاد الاغريق الزيت والنيذ والعسل والتين واللحوم الباردة والسماك المجفف والاسفنج وكانت الفواكه على مختلف انواعها ترد من آسيا الصغرى وجزر بحر الارخبيل وكان القمح والشعير وما اليهما من غلات مصر تحمل في النيل في مراكب الى سوق الغلال العظيمة في الاسكندرية . وفوق ذلك فان المدينة نفسها كانت تقوم بصناعة مواد كثيرة من عطور وزجاج وكتان ويردى كانت تقوم مصانعه المختلفة في شتى ارجائها^(٢)

(١) البردى المختار - جزء أول ، ويحتوي على نبد من هذه الوثائق توضح عقود الزواج والالتزامات التي تربط اطراف هذه العقود

(٢) وتلقى وثائق بردية زينون التي يجري نشرها تباعا منذ ١٩٢٥ ، ضوء اعلى ماحظيت به المدينة من تقدم اقتصادي وتذكر الواردات اليها من مختلف اجزاء البحر المتوسط والضرائب التي كانت تجبي عليها

اهم معالم المدينة

ولما أصبحت الاسكندرية قاعدة لمصر ونقل اليها جثمان الاسكندر وأتجه ملوك البطالمة الأولين الى ناحية في السياسة، لاهى بالمصرية الصميمة ولا باليونانية الفجة ، ركزوا جهودهم في اظهار مدينة الاسكندرية في ثوب من الحسن والبهاء يبهرون به ابصار العالم الاغريقي، فتمت المدينة بسرعة فائقة وقامت مبانيها تمتد من القصور الملكية علي رأس لوخياس (Lochias) في قطاع كان يسمى براخيوم (Bruchium) في الجانب الشرقي من الميناء الشرقي ، وبدت على جزيرة فاروس المنارة المشهورة للغادى والرائح في أبهى حلة، وكانت أول الابنية العامة التي أقيمت من هذا النوع حتي عدت احدي عجائب الدنيا ، وضع تصميمها مهندس كنيدي مشهور يسمى «سستراتوس» (Sostratus) واحتفل بافتتاحها في أول عهد بطلميوس الثاني وبوركت باسم الالهين المخلصين (Theoi Soteris) وهما بطلميوس الاول وزوجته ، وكانت تتكون من ثلاث طبقات وبلغ ارتفاعها نحو مائة وعشرين مترا وكان يشع منها ضوء قوي يري على مسافة ثلاثين ميلا في البحر، ويظهر أنها كانت تحتوي بالاضافة الى ذلك على شيء أشبه بمنظار مكبر لعله كان يدار بواسطة مرايا كاسرة للاشعة — وكان من معالم مدينة الاسكندرية ضريح الاسكندر الذي عرف باسم سيم (Sema) وهي تحريف من كلمة سوما (Soma) الاغريقية بمعنى جسد، والى جواره، بلاريب كانت تقوم مقابر ملوك البطالمة المتعاقبين من الآلهين المخلصين وهما بطلميوس الأول وزوجته ثم الآلهين الاخوين (Theoi Adelphoi) أي بطلميوس الثاني وزوجته أرسينوى الثانية وهي أخته ، والآلهين المحسنين (Eucrgetai) وهما بطلميوس الثالث وزوجته، والآلهين المحبين لأبيها (Philopatores) أي بطلميوس الرابع وزوجته وهكذا . ثم كان هناك السرايوم المشهور في غرب المدينة علي مقربة من الحى الوطنى ، وتقوم فيه عبادة الاله الجديد سيراييس الذي اصطنعه

البطالة الأولون كي يكون وسيلة يوحدون بها الشعب ويوثقون بها الصلات (١).

الاسكندرية مركز للثقافة

ولم يُنس البطالة حرصهم على مظاهر العظمة المادية لعاصمة مُلكهم جانب الحياة المعنوية والفكرية فيها، فقد اشتهرت قبل كل شيء بدار الحكمة او الأكاديمية ودار الكتب، ويظهر أن الأولى كانت في باديء أمرها معبدا للتاسوع الالهى من أرباب العلوم والفنون (Musés)، له رئيس هو سادن لهذه الآلهة ثم ما لبثت أن أصبحت جامعة كبرى أو علي الأقل محفلا جامعيًا أشبه بإحدى كليات جامعتي أكسفورد أو كمبردج في نظنها وتكوينها (٢)، فكان العلماء والأدباء من مختلف الأجناس والأقطار يلتقون فيها وتندق عليهم الحكومة البطلمية المستنيرة من خيراتها ما يشجعهم على الانتاج العلمى والفكرى، بل وتمنحهم مرتبات من خزائنها الملكية في سخاء، وبفضل هذه المرتبات وما كان يتوافر لدى هذه الجامعة من الموارد المعتادة استطاع علماءها ان يتوفروا على أعمال البحث والتنقيب، لان التعليم والتدريس لم يكن عملا إجباريا فيها، ولقد وجدوا في المكتبة الملحقه بهم موردا عظيما من الكتب والمراجع في تناول أيديهم يعتمدون عليه في متابعة أبحاثهم.

ولقد عنى بطليموس الأول منذ أول الأمر بإدخال الأدب الاغريقي إلى الاسكندرية، وكان هو نفسه رجلا من رجال الأدب إذ كتب وصفا للحللات الاسكندر وأحاط نفسه بمحاشية من الشعراء والفلاسفة وأسبع عليهم من الخطوة واللودة ما حجب اليهم الإقامة في الاسكندرية فقرب اليه علماء النحو أمثال زينودوتوس

(١) بيير جوييه - «السيطرة والاستعمار المقدوني» ص ٢٧٨ - ٢٨١

P. Jouguet, Macedonian Imperialism pp. 278 - 281

وقد عدد في هذه الصفحات معالم المدينة وتقسيمها إلى احياء خمس سميت بأحرف الهجاء الأولى.

(٢) انظر مقال بل (H. I. Bell) في مجلة الآثار المصرية

(Journal of Egyptian Archaeology) vol. XIII, p. 178.

(Zenodotus) ، والشعراء أمثال فيليتاس (Philetas) ، وعلماء الرياضة أمثال أقليدس (Euclid) ، وكان سخيا نحو هذه الشخصيات الفذة الممتازة بقدر ما كان لين العريكة ، وكان يختص ستراتون (Strato) بقدر من عنايته حتى أنه قدم إليه هدية قدرها ثمانون تالنتا^(١) (نحو ١٨٠.٠٠٠ جنيتها) فكان يعرف تماما ، كيف يجزل العطاء لذوي اللواهب في سخاء ملوكي — ولكن ليس بكاف أن يستهوى العلماء ويجذبهم بكرمه وسخائه إلى الاسكندرية ، فلا بد من الاحتفاظ بهم فيها حتى يتركوا أثرًا باقياً دالاً على إقامتهم في مصر ، فعمل على تهيئة الضمان الكافي بأن يحصل هؤلاء العلماء في الاسكندرية لا على رفقائهم وزملائهم فحسب وإنما الكتب والفرص وفسحة من الوقت كذلك لمتابعة دراساتهم ، هذا فضلا عن عطف ملك مستنير ، وعندئذ رحل كل أولئك العلماء تدريجياً إلى تلك الكعبة التي كانت تنتظر وفادتهم ، وكانت الاسكندرية في تلك الأزمنة المضطربة ملاذاً يأوي إليه رجال الفكر واستقروا للعمل الثمر وأخذ الناس يرحلون عن بلاد الاغريق التي عمها الفقر وأصابها الوهن وأنهكتها الحروب وكذلك رحلوا عن آسيا التي لم تكن الحياة مستقرة فيها إلى « أثينا الجديدة » على شاطئ مصر الشمالي وقد اتخذت مقراً للعلوم وأصبحت عظمتها إرثاً مشتركاً للجميع ، وكان ملك مصر غيورا على تأييد هذه النهضة الأدبية وتمضيد القائمين بها خشية أن يسبقه في هذا المضمار ملوك آسيا من السلوقين او غيرهم فسارع بإنشاء دار للحكمة ودار الكتب وقد بدأ تازميلاتهما في آسيا.

وحنا قد عرض لنا سؤالا وهو : من يستحق الفخر بأن نمنح اليه إنشاء هاتين المؤسستين ، أكان بطلميوس سوتر أم بطلميوس فيلادلفوس ؟ وانه لمن المستحيل علينا أن نجيب عن هذا السؤال بصفة قاطعة لأن النصوص القديمة متضاربة

(1) Diogenes Laertius, V, 3. 58.

في أقوالها^(١)، ومع ذلك فيمكن أن نستخلص من هذه النصوص القديمة ما يؤيد القول بأنه كان بطلميوس الثاني — لقد أوضحنا الشاعر التي دفعت ببطلميوس سوتر الى التفكير في انشاء دار للحكمة ومكتبة ملحقة بها ، ولكن هذا العمل لم يكن من الأمور التي تتم في يوم وليلة ، ويبدو أنه في أثناء الجزء الأول من حكمه كان مشغولا بتأمين مملكته ضد عدوان منافسيه والانتقال من معركة لأخرى فتارة هو في برقة وأخرى هو في رودس او قبرص او آسيا الصغرى فلم يتح له من الفراغ او يجد من المال ما كان يتطلبه القيام بهذا المشروع السلمي اما في الشق الثاني من حياته فقد كان أكثر هدوءا ، قضاءه في استقرار ، وبعد أن أقام ملكه علي أسس ثابتة ودعائم قوية كان في استطاعته أن يكرس جهوده في كثير من السخاء الى المنشآت السلمية وصادف في ذلك الوقت (٢٩٩ ق.م.) ان طلب اليه ديمتريوس الفاليري (Demetrius Phalerius) ان يأويه بعد ان نفي من أثينا وكان ديمتريوس هذا ذا عقل راجح وفكر خصب عرف بالنشاط واشهر بالعلم فكتب وصنف في كل موضوع يمكن تصوره من تاريخ ونحو وسياسة وخطابة وأخلاق^(٢) ولقد أكرم سوتر وفادته وانتفع بعلمه بأن وكل اليه الاشراف على دار الكتب ولا يمكن ان يكون معنى ذلك توليه وظيفة رسمية شبيهة بتلك التي تولاها مديرو المكتبة وامناؤها الذين خلفوه لأنه لم يكن لدار الكتب وجود حتى ذلك الوقت وكانت الحاجة ماسة الى شخص يقوم بتنظيمها وكان ديمتريوس أقدر وأصلح شخص للقيام بهذه المهمة الشاقة ، وبناء على مشورته اشترى بطلميوس كتبا كثيرة كان من بينها كل ما كتب عن فن الحكم « والكتب » على حد قول ديمتريوس « أكثر شجاعة من رجال القصر على قول الحق للملوك »^(٣). تلك هي الظروف التي نشأت

(1) Plutarch, Apophthegmata 189 d; Clement, Strom. I, 351.

(2) Diogenes Laertius V, 6, 80.

(3) Plutarch, Apophthegm. 189 d.

فيها المكتبة التي أصبحت محتوياتها لا تقل في نهاية حكم بطليموس سوتر عن مائتي الف مجلد، ولما تولى فيلادلفوس نفي ديمتريوس هذا لأنه كان يشك في إخلاصه وبذل الملك مجهودات جسارة في جمع الكتب من كل أنحاء العالم الاغريقي وفي السنين الأولى من حكمه نقلت الكتب الى دار الحكمة وفي الحقيقة بدأ منذ ذلك الوقت وجود المكتبة الفعلي وينطبق هذا القول على دار الحكمة أيضا، والمتفق عليه أن بطليموس الثاني يعتبر المؤسس للمكتبة ودار الحكمة (١) ومن الممكن أن التصميمات الأولى لتلك المؤسسة قد وضعت في عهد سوتر الذي استمد الفكرة من اولئك العلماء الذين أحاطوا به ولكن فيلادلفوس هو الذي نفذ المشروع فجنى فخر نسبه اليه وكرس جهوده منذ تولى العرش «لمتابعة التقاليد الموروثة عن والده» (٢) وعلى ذلك يمكن أن نقول بحق أن بطليموس سوتر هو صاحب الفكرة في انشاء المكتبة ودار الحكمة وابنه فيلادلفوس هو الذي أسسها واخرجها الى حيز التنفيذ .

وقيل أن بطليموس الثالث أصدر أمرا يقضى بأن يؤخذ من جميع السياح الذين يرسون على شواطئ الاسكندرية ما قد يكون معهم من الكتب وأن يبعث بها الى دار الكتب ويتسلم أصحابها بدلا عنها نسخا رسمية (٣) ولم تكن محتويات هذه الدار من الكتب مقصورة على الآداب اليونانية وإنما كانت تشمل على مترجمات لمؤلفات من اللغات الاخرى وأصبحت محتوياتها في العصر الروماني تعد بمئات الالوف من المجلدات .

وكانت دار الحكمة بالاسكندرية تقوم في الغالب على أسس مقبسة من نموذج اغريقي وكان يلتقي العلماء في ساحاتها وابنائها لتأدية أعمالهم وللمناقشة في

(1) Couat, Alexandrian Poetry pp. 11-12.

(2) Callimachus, Hymn, IV, 170.

(3) Galen ed. Kuhn, XVII, 1, 606.

الامور الهامة من درس وبحث واذا استطعنا أن نتصور ذلك المبنى الرئيسي الذي وصفه سترابون والأبنية الشاسعة في خارجه وقد الحقت بالبناء الرئيسي ودار الكتب، وما كان يهذه المباني من أروقة فخمة وأعمدة رشيقة، أمكننا ان ندرک ما توفرت عليه الحياة الداخلية فيها من وسائل الراحة، ففي ظل الهواء الدفء في أفنيتها وفي كنف البهو غير المسقوف (Exedra) كان ينزل أولئك العلماء ضيوفاً يأكلون وينامون في تلك الدار ويقعدون اجتماعاتهم لمناقشة بحوثهم بعيداً عن ضوضاء المدينة وجلبتها ويعكفون على كتابة مؤلفاتهم التي ذاع صيتها وطبق الآفاق.

كان أدباء الاسكندرية يحاكون أدباء اليونان القدماء، ولكن ألوان الأدب التي تميزت بها الاسكندرية لا يمكن أن تقارن بما أخرجه اليونانيون من الأدب في العصور الزاهرة الكلاسيكية (القديمة)، ومع ذلك فكانت آداب الاسكندرية ذات طابع خاص له قيمته، ومن المسلم به، أن طابع الأدب الاسكندري كان يوصف بالتكلف والتصنع، فقد أظهر كتاب مدرسة الاسكندرية من العلم والعرفة ما لم يستطع قراؤهم استساغته، وهناك بقية من قصيدة للشاعر كاليماكوس (١) تسمى «الاسباب» تلتق لنا بعض الضوء على طريقته في صناعة الشعر فتظهره جالساً على مائدة يجمع يشغف واشتياق من عابر سبيل الغريب من المعلومات والنوادير كما يصوغها في قصيدته وهذه طريقة طريقة تدل على روح العصر، وكان السكندريون قد طغت عليهم الى حد بعيد آداب العصر الزاهر اليوناني فيما يختص بأساليب الشعر وقوافيه ولتتحقق الانسجام والتوازن وجهاً وجهاً شطر التجديد في الموضوع وطريقة المعالجة لما يعن لهم من موضوعات طريقة فكانوا باستمرار كمن يصب التبيد الجديد في زجاجات قديمة، وفي بعض الأحيان لم يكن عملهم في ذلك موفقاً، ومحتوي مقطوعة حكيمية (epigram) من شعر كاليماكوس الذي كان يضرب الامثال

(1) Callimachus, Aitia, (P. Oxyr. XI, 1362).

فيه للناس على خلاصة روح الحركة الفكرية في الاسكندرية : « إني أمقت للملاحم ولا أوثر المطولات التي يتشعب فيها القول كما يفعل الكثيرون وأكره الغزل التقليدي في الشعر ولا أنهل من ينبوع ينهل منه الآخرون، وأكره كل ما يتعلق بجمهرة الناس وكثرتهم الغفيرة » وكان من آثار هذه النزعة في هذا الشاعر ان جاء بالشعر النفيس العالى القيمة والذي لم يبرأ من التصنع ، ولم يخجل أدب السكندريين عامة من هذا العيب ، ومع ذلك فان أناشيد كالما كوس وملحمة ابولونيوس الرودى تيموى علي مزايا حقيقية اذا قدرنا ما فيها ولم نبحث عن صفات لم تجل بخواطر مؤلفياً — وان تجارب السكندريين كانت ذات قيمة باقية الأثر فقدموا لنا في الاناشيد الراعوية (Idylls) للشاعر ثيو كريتوس نوعا جديدا وأسلوبا فذا في المعالجة لم يجاره فيه احد فيما بعد ، وان موضوع الحب الخيالى ، الذى عرفه كتاب الاسكندرية ولكنهم لم يستغلوه بقدر كاف في ذلك العصر ، كان مما أثر في مجرى الادب الاوربي وتوجيهه .

ولكن خدمات السكندريين للأدب لم تقتصر على انتاجهم الخاص منه فان علماء دار الحكمة او «المحفل الجامعي» ان صح هذا التعبير وقفوا لاختراع فن النقد الادبي ، وان عملهم في هذا المضمار لم يخجل من شوائب ومع ذلك فاننا مدينون لهم فيه بدين عظيم ، واذا كان من الثابت كما يؤخذ من أوراق البردى ان نصوص بضعة نفر من المؤلفين القدامى قد أصبحت في القرن الثالث قبل الميلاد محرقة بما أصابها من اللسخ والتشويه ، فالى علماء الاسكندرية وأدبائها يرجع أكبر الفضل في اعمال التنقيح والتصحيح والمراجعة لكثير مما بقى لدينا من مادة النصوص التي نقرأها اليوم ومن يدري فكم من نصوص الادب الاغريقي الذي تستمتع بقراءته اليوم كانت تعبت به أيدي البلى والدثور وتعدو عليه عوادى الزمن لولا ما قام به علماء الاسكندرية وقادها من غيره وجهد في البحث عن أصول ونصوص كتب ذلك الأدب الاغريقي الخالد ؟ ؟

ولعل الاسكندرية قد برزت في العلوم الطبيعية فاشتهرت مدرستها الطبية وخاصة في علمي التشريح والجراحة وبرزت نظائرها من المدارس الاخرى بمراحل كثيرة، أما في علم الأحياء فلم يكن حظها من الشهرة مثله في العلوم الأخرى، علي ان دراسة علم الأحياء تقدمت فيها بلاشك بفضل حديقة الحيوان التي أسسها بطليموس فيلادلفوس، وكان أكبر نصر أحرزته في ميدان الرياضيات وعلم الميكانيكا . وفي الاسكندرية سبق أرسطارخوس (Aristarchus) العالم كوبرنيكوس (Copernicus) بأن وفق لمعرفة ان الارض تدور حول الشمس وقاس اراتستينيس (Eratosthenes) قطر الارض ووصل في بحثه الى رقم لا يختلف عن طوله الحقيقي الا بمقدار خمسين ميلا وكتب اقليدس (Euclid) كتابه المسمي «العناصر» وكان ارشيمدس (Archimedes) من بين الذين درسوا هناك. ولكن الجلود العجيب والاحول الذي اعترى الذكاء اليوناني قبل العصر المسيحي بقليل حال دون ان يوفق اليونان الي معرفة كثير من عجائب العلم الحديث بل ان هذا الجلود أدى بهم الى اهمال العلوم التي كشفوها من قبل .

حال المدينة في أواخر عهد البطالمة

ولقد كانت الاسكندرية ميدانا لكثير من الاحداث الهامة في مدى القرون الثلاث التي حكم فيها البطالمة مصر، ففي القرن الثالث قبل الميلاد اذ كانت قوة أسرة البطالمة على أشدها شاحدت الاسكندرية كثيرا من مظاهر النشاط السياسي والاحداث الهامة فكانت الاحتفالات والمواكب وزيارات السفراء الاجانب ابرز هذه المظاهر في ذلك العصر، وهناك وثيقة بردية كشفت حديثا (١) تحتوي خطابا من وزير المالية ابولونيوس في عهد فيلادلفوس الى وكيله زينون في فيلادلفيا ينبئ فيه بوصول رسل معتمدين من ارجوس وسفراء من قبل الملك يريساديس (Paerisades) ملك البسفور كما يشاهدوا مناظر اليوم وآثارها وهناك بعثة سياسية ثبت أنها

(1) Symbolae Oloenses, 1927, "Greek Sightseers in Fayum" by Bell.

اتت من روما واخرى من قرطاجه وثالثة من الهند، فقد أرسل الامبراطور البوذي المسمى أسوكا (Asoka) رسله إلى بطلميوس الثاني لينصحوه ويشروه بأن ساعة الخلاص من ربة الدنيا قد حانت ، فبل استجاب لنصحه ، وهل وجدوا في قلب هذا لللك المتقون بالنساء وإيثار السررات وحب الترف والعظمة سامعا او محييا ؟ وعقب موت بطلميوس ازابع (فيلوباتور) الذي أنهك في الملاذ والمجون والفحشاء بدأ الحال يتغير وحدثت اضطرابات في الاسكندرية عندما ظهرت امام الشعب حظية الملك الحبيبة وأحود — بعد قتلها الملكة المحبوبة — يميلان رفات الملك والمملكة ويتكلمان ذرف الدمع المتون ، فذار عليهما سفة الناس وعامتهم ، ولكن ثورتهم لم تنجح^(١) ، ودرىخ القرن الثاني هو في الغالب سجل لما كان يحدث من شقاق ونزاع داخلي بين أفراد الأسرة المالكة وحروب أهليه كانت روما تتدخل من وقت لآخر لحسم النزاع فيها ، والسكندريون — ولا ريب — قد ألفوا مظاهر هذا النزاع بين أفراد الأسرة المالكة وما كان بينهم من تناحر ، وفي عهد بطلميوس الثامن الذي اشتهر رسميا بسم يورجيتيس الثاني والذي سماه للمعجون به من رعيته فسكون (Physkon) أي السمين نشبت الاضطرابات وقتل الملك فيها عددا كبيرا من الوطنيين فنشأ عن ذلك تغيير كبير في أخلاق الشعب السكندري ، ولقد وصف الاسكندرية المؤرخ بوليبيوس الذي زار مصر في هذا العصر فقال « كان بالمدينة ثلاثة عناصر من السكان : العنصر الوطني وهم المصريون وهو نشيط ليب متحضر ، والجنود المرتزقة وهم كثيرون متمردون تعلموهم سمة من الكبرياء والصلف (لأن الملوك تعودوا من أمد طويل ان يحتفظوا بالجند المرتزقة المدججين بالسلاح الذين تعلموا مما وجدوه من عدم أهلية الملوك المتعاقبين وقلة كفايتهم ان يحكموا لا أن يطيعوا) ، ثم ثالثهم العنصر السكندري وهؤلاء لم يكونوا متحضرين لنفس

(١) قد ذكر المؤرخ بوليبيوس تفاصيل هذه الحقبه بأسهاب ، قصور ما كان يجري في البلاط الملكي من منافسات وما كان يقوم به شعب الاسكندرية من اضطرابات .

الأسباب ولو أنهم كانوا أفضل من العنصرين الأولين لأنهم مع كونهم أمشاجا من بلاد مختلفة كانوا يوناني الأصل فلهذا ينسوا المميزات المشتركة لليونانيين (١) ، ويقول بوليبيوس بأن هذا الفرق من السكان قد تلاشى ، وفي هذا بلا شك مبالغة ظاهرة - وهكذا لا يذكر المؤرخون الأقدمون السكندريين في العصر المتأخر من حكم البطالمة بشيء من الإعجاب ، فكانوا في نظرهم متقلبين سريعى التأثير عنيدين متمردين يحبون العمل ويميلون مع ذلك الى اللهو ، وهم ثرثارون فيهم طلاقة اللسان ولذعة ، قليلا الاحترام للأديان ومع ذلك كانوا يظهرون تعصبا دينيا شديدا في بعض الأحيان ، وكانوا دائما معرضين لأن تتناهم حالات يفرطون فيها في الهياج والشغب علي الحكام فكانوا مدة قرن شوكة في جانب السلطات التي كانت مسئولة عن حفظ النظام .

وما وافى القرن الاول قبل الميلاد حتى كان استقلال مصر قد أشرف على الضياع وأصبحت حالها لا تفضل كثيرا حل البلاد الخاضعة لحماية الرومان ، وعندما ثار شعب الاسكندرية في وجه الملك بطلميوس أوليتيس (Auletes) أو الزمار ، وكان ماجنا مبذرا ، أغرم بالزمر وأهمل شؤون البلاد طرده شعب الاسكندرية الي المنفى ؛ ولكنه ذهب الى روما بحثا عن معين يُعيده الى عرشه المسوب ، وأخيرا وجد في شخص جابينيوس (Gabinus) قائد جند الرومان وحاكم الشام ضالته المنشودة ، فرشاه بالمال الوفير وفي نظير ذلك ساعده علي العودة الى بلاده بل واحتل جند الرومان مدينة الاسكندرية لتأييد عرش الملك سنة ٥٥ ق.م. ، وفيما بعد ذلك بتليل آتي يوليوس قيصر الى مصر مقتفيا أثر بومي المهزم الفار بعد موقعه فرساليا عام ٤٨ ق.م. ، ولكن القائد اللطيف وقع أسير حب كليوباتره السابعة ابنة بطلميوس أوليتيس السابق الذكر ، فقتله بذكائب وروحها وأساليها التي أسهب المؤرخ

(1) Polybius, Book XXXIV, 14 De Alexandria, Aegypti Urbe.

بولتارك في تعدادها والإشادة بها^(١)، ولكن العلاقات بين قيصر وكليوباترد لم تمض دون أن يكدر صفوها شعب الاسكندرية وقواتها المحاربة ، فقد شق عليهم وجود قيصر بين ظهرانيهم وتدخله في أمورهم ووقوفه من كليوباتره وأخيها الصغير وهو زوجها موقف الحكم ، ثم تطورت الأحوال وحوصر قيصر في القصر الملكي وشدت عليه الخناق اتباع أخيها ، وقد ساءت الظروف المحيطة بقيصر فترة من الزمان ، كان فيها يعاني مرارة الحصار وقلة الماء للاستسقاء وضعف القوات ، ولكن أفضته قوات حليفة أمت من الشام يهودها مترداتيس ، وفي أثناء القتال الشديد الذي نشب بينه وبين الثوار عقب ذلك أصيبت أجزاء من المدينة باضرار جسيمة ، وخاصة الأجزاء القريبة من القصر الملكي وفيها أغني الأبنية وأعظمها وقد عمد بعض الكتاب الى القول بأن أجزاء من المكتبة قد تهدمت وأحرقت كنوزها في هذه الظروف ، ولعل الأمر قد اختلط عليهم فظنوا أن الكتب التي كانت على مقربة من رصيف البناء أو مكدة في مخازن في هذا المحيط والتي اشتعلت فيها النيران هي بعينها الكتب الموجودة في دار الكتب الكبرى وليست بديلا أو فائضا كان قيصر ينوي أن يبعث به الى روما ، وعلي أي حال فلا يزال القول بحرق مكتبة الاسكندرية مفتقرا الى التأييد بعيدا عن الصواب .

تواري يوليوس قيصر عن الابصار في مارس سنة ٤٤ ق.م. نتيجة تآمر عصبة من الجمهوريين المشفقين على الروح الجمهورية الحلقة من نوايا قيصر في إعادة الملكية الى روما في أبواب فضفاضة ، وكان يتلمس السبيل ويتحين الفرص ويحس نبض الشعب الروماني ليتعرف على مبلغ تقبله لذلك التغيير الذي لا تعرف مداه إذ حمل هذا السر العظيم الى قبره بعد أن خر صريعا في مجلس الشيوخ الروماني أثر طعنة من بروتس (Brutus) ، وقد آل الأمر الى اكتاف يوس وأنطويوس ، فتوفرا

(1) Plutarch, The Life of Antony.

علي تنظيم إرث قيصر وتنفيذ مشروعاته ، ثم بدت بوادر الخلاف بين الزعيمين وكانا قد اقتسما العالم الروماني فاحتص انطونيوس بالشرق بما فيه مصر واقرد اكتافيوس بالغرب وأصبح ناعره والمدافع عنه ضد الشرق وقد اتصل انطونيوس بكليوباتره وأغرم بها ثم تزوجها ، فلم يرق ذلك في نظر روما التي أخذت تنظر اليه علي أنه مفتون وعبد لكليوباتره يزيد أن يغلبها علي روما ويجعل من الاسكندرية عاصمة للعالم كله ، لها السبق علي روما ، فقام العالم الغربي بشن حربا علي كليوباتره ونصيرها انطونيوس ومن ورائها جل قوى الشرق ووقعت الواقعة الهائلة في اكتوبر سنة ٣١ ق.م. فانتصرت قوات روما وباه انطونيوس بالخذلان وعاد هو وكليوباتره الي الاسكندرية ومعها أسطول مصر البالغ ستين مركبة ، وكان قد انتهى من قبل ذلك عهد استقلال مصر بالحكم المشترك بين انطونيوس وكليوباتره ، ولما قضى الأمر بانتحاز المحيين كليهما عقب هزيمتهما في الاسكندرية وفشلهما في الاعتصام بهنم اكتافيوس مصر الي الدولة ازرومانية وسجل ذلك في الوثيقة المشهورة بأثر أشهر (Monumentum Ancyranum) بقوله وهو يشيد بأعماله « أضفت مصر لسلطان الشعب ازروماني » (١) ، وقد أصلح اكتافيوس أغسطس شؤون الاسكندرية واصدر عفوا ، وأقر امتيازات المدينة ويقول المؤرخ ديوكاسيوس (Dio Cassius) إنه « أمر السكندريين ألا يعولوا في تسير شؤونهم السياسية علي مجلس الشورى (Boulê) نظرا لشكوكه في ائتلاف السكندريين المتقلبة » .

وهكذا شهدت الاسكندرية طوال القرون الثلاثة من حكم البطالمة أحداثا عظيمة تركت فيها آمال البطالمة الذين اختصوها بمجل عنيتهم فكان حظها من النجاح وافرا وقدمها سريعا ، وإن نرجو أن تكشف اعمال الحفر والتنقيب بها عن آثار تزدهر بها علي غيرها من مدن مصر القديمة ، ونرجو لها ان تستعيد سيرتها الأولى .

(1) Monumentum Ancyranum, Chapter 27 "Aegyptum imperio populi Romani adieci".